لقاء قناة الكوت الكويتية بالدكتور إبراهيم الجعفري
2011/2/3
(رجل التصدي .. قصة نضال)

المقدم: في البداية نرجع معك إلى مرحلة الطفولة.. أنت من مواليد عام 1947 في مدينة كربلاء المقدسة، وفي تلك الفترة كانت القيم الإسلامية هي المسيطر على مدينة كربلاء، ما الشيء الذي لايزال حاضراً في ذاكرة الدكتور إبراهيم الجعفري من تلك الحقبة؟

الجعفري: كانت كربلاء، وماتزال تعكس إيحاءات من وحي اقترانها بسيد الشهداء الإمام الحسين (صلوات الله وسلامه عليه)، فأنت من حيث لا تقصد، وأنت تشبّ، وتترعرع في هذه المدينة تستلهم من الإمام الحسين (صلوات الله وسلامه عليه) كمبدأ وفكر وشعائر ألفناها، ودرجنا عليها في أزقة كربلاء منذ الطفولة، في الوقت نفسه إن المجتمع الكربلائي ليس مجتمعاً أحادياً فالكثير من زوار كربلاء تحول سفرهم إلى سفر من دون رجعة، فقطنوا كربلاء، وأقاموا فيها؛ لذا فالمجتمع الكربلائي مجتمع متعدد في جذوره التاريخية، أضف إلى ذلك أن مدينة كربلاء رئة مفتوحة تجد في أفقها الآخر العراقي من مدن مختلفة، والآخر العربي من دول عربية مختلفة، والآخر الإسلامي من الدول الأخرى المختلفة، فشئت أم أبيت ستتزوّد من هذا العطاء الثقافي من دون تكلف، ومن دون أن تقرأ موسوعة عن كربلاء، إنما تتدرّج عن الآخر؛ لأنه واقع في حياتك، وفي الوقت نفسه أنا منذ وقت مبكر قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية دخلت إلى السوق في تجارة القماش.

المقدم: توفي والدك وأنت في الرابعة من العمر، وكانت علاقتك وارتباطك الشديد بالسيدة الوالدة، حدّثنا عن هذه العلاقة.

الجعفري: الوالد رحمه الله توفي عام 1951، وكنت حينها بين الرابعة والخامسة، وأتذكر بعض الأشياء البسيطة جداً عندما أستحضر هذا التاريخ، أما الوالدة فلا، نحن طبعاً عددنا في البيت كان كبيراً، إذ كنا 12 ولداً وبنتين اثنتين، لكن قسماً منهم ماتوا وهم صغار، من الطبيعي أن تتجذر العلاقة بيني وبين الوالدة عبر الزمن إلى أن توفيت عام 1980 بعد خروجي من العراق بشهر وأسبوع.

المقدم: يقال إنها هي التي أمرتك بترك العراق؟

الجعفري: نعم.. هي قالت لي ذلك، قالت: إن كان لي حق عليك يجب أن تخرج، فقد شعرت ولديها وعي ممتاز، عندما بدأت الاعتقالات بشكل مكثف وكثير من أصدقائي وإخوتي تعرضوا للاعتقال، واتسعت دائرة الاعتقالات فألحّت عليّ بالخروج.

المقدم: في إحدى كتاباتك قلت: معلمتي الأولى ينبوع متدفق بالحب، دورها في ترسيخ قاعدة حب الآخر، في القلب منذ الطفولة سيظل مفهوماً، (تجاوز عن الناس يتجاوز الله عنك)، تلقنته من أمي وصار شعاري مع كل من أساء إليّ؟

الجعفري: هذا الشعار درجت عليه عادة وتقليداً..
الأم والأب في تقديري وعموم المربي والمعلم، والمحاضر والخطيب والعالم هم معطون، معطٍ تعليمي والأهم منه هو معطٍ تربوي، فوالدتي كانت تغذي هذا الاتجاه، وكانت تلتمس العذر حتى لمن يخطئ بحقها، هذا اقتبسته أنا؛ لذلك جاءت هذه الكلمة العفوية مني أنها كانت تزرع فيّ حب الآخر.

المقدم: هل تباطأت يوماً عن تطبيق هذا الشعار طيلة مسيرتك السياسية الطويلة؟

الجعفري: أبداً أبداً، بل أحيطك علماً، أنا أعلم أن بعض الذين سامحتهم أنا قاطع بأنهم أساؤوا، بل امتدت محاولاتهم لاغتيالي، لكني لست نادماً أبداً، والفضل يرجع لجذوره الحقيقية.

المقدم: ذكريات مدرسة السبط الابتدائية عام 1952 ما الذي لايزال عالقاً في ذهن الدكتور إبراهيم الجعفري من تلك المرحلة؟

الجعفري: في عام 1952 لم يقبلوني اعتبروني صغيراً، وفي نهاية عام 1952 وبداية 1953 قبلوا، وذهبت إلى المدرسة، فرفضوني بدعوى صغر سني، فذهب أخي الأكبر السيد محمد (رحمه الله)، وهو أكبر العائلة وأنا أصغرهم، فذهبنا إلى السوق.. ذكريات جميلة، شعرت كأي طفل ينفتح على المدرسة.

المقدم: أثناء وجودك في الطائرة حين كنت متوجهاً إلى إيران اتخذت قراراً بتبديل لقبك من إبراهيم الأشيقر إلى إبراهيم الجعفري، هل كان قراراً سريعاً أم مدروساً؟

الجعفري: بأقل من دقيقتين وكنت في سماء العراق، وأنا هارب من العراق وبين سورية وإيران متجهاً إلى إيران، سألت هذا السؤال، وقررت أن أبدل اسمي؛ لأني أعلم كيف سيتعامل النظام مع أهلي، فقلت إما أن أختار لقب (الموسوي) وأنا موسوي، وإما أن أختار (الجعفري) وأنا جعفري، فتبادر إلى ذهني اسم الجعفري، فسُمِّيت الجعفري، ولم أكن أحسب أن الاسم الذي اخترته بأقل من دقيقتين سيلتصق، بل سيطغى على اسمي الحقيقي وهو الأشيقر.

المقدم: ما أبرز ذكرياتك خلال وجودك في إيران الذي دام عشر سنوات خصوصاً أنها كانت في مرحلة الثمانينيات مرحلة الثورة الإسلامية، والمنطقة كانت كلها تغلي؟

الجعفري: منذ السنة الثانية، ثم اندلعت الحرب كنت هناك، وقد عشت التقلبات التي حصلت في أجواء الجمهورية الإسلامية، وساهمت في تخصيب التجربة لديّ وتوسعة آفاق تفكيري السياسية طبعاً أنا تركت كل شيء إلا العراق، ولم أذهب إلى أي بلد إلا وكان العراق الهمّ الأول، وأعمّق الفرص الفكرية والثقافية، لكني لم أشتغل لا بالطب ولا بالتجارة ولا بأي شيء، إنما كان شغلي الشاغل هو العراق فقط..
يوم احتلال صدام الكويت، هو ذات اليوم الذي دخلتُ فيه لندن مسافراً كسفرة ذهاب يعقبها إياب، فتحولت السفرة إلى سفر ذهاب بدون إياب، والمكوث في لندن.

المقدم: كانت لندن محطة مهمة جداً في تاريخك السياسي، أبرز مسارات العمل النضالي كان في سبيل القضية العراقية.. لجنة العمل المشترك في المعارضة العراقية عام 1991.. هلا تتحدث لنا عن أبرز ذكرياتك في تلك المرحلة؟

الجعفري: ذكرياتي كثيرة جداً.. العمل المشترك نشأ على الأرض السورية، لكن حقيقة امتد من حيث النشاطات إلى بريطانيا حيث الزخم الكبير، والرموز العراقية المتعددة، كرد وعرب وتركمان وسنة وشيعة وجاليات مختلفة وآشوريون، كما أن الفضاء في لندن يتسع للنشاطات المختلفة، في الوقت نفسه كانت هناك إطلالات على الجاليات الأخرى، فتخصّبت التجربة، لذلك كنا نعقد مؤتمرات ومظاهرات وأي مناسبة تحدث في العراق تأخذ تلقيّات على شكل تظاهرة، أو مؤتمر، أو احتفال، أو لقاءات، أو ندوات مفتوحة، ونشرك أبناء الجاليات الأخرى من مختلف المناطق، وعندما حدثت قضية الكويت كان هناك تعاطٍ رائع من الإخوة الكويتيين، وهم هناك كانوا يئنون، وبدأت، وتجذرت، وتعمقت القضية، وأتذكر أني زرت الأخ رياض الريس سفير الكويت في لندن آنذاك، وكان معي اثنى عشر شخصاً من الشخصيات العراقية، وتحدثت معهم مفصلاً فأشاد بالحديث، وأعرب عن مشاعره الطيبة، وأحسسنا أننا مع بعض، ونحن وأنتم ضحايا صدام.

المقدم: المعروف عنك أنك إنسان اجتماعي، ولديك العديد من الأصدقاء في مثل هذا اليوم ألم تفتقد الأصدقاء المقرّبين إليك؟

الجعفري: في الحقيقة يصعب عليّ أن أقول لك مَن، ليس لقلتهم، إنما لكثرتهم، منذ وقت مبكر السيد عباس مهدي ضياء الدين، وحسين جلوخان، ونوري طعمة، ومحمد زكي، ومهدي لطيف، وهادي الكرعاوي، ومهدي الكرعاوي، وجواد صادق طالب، والسيد داود العطار عام 1982 صداقات تميزت بالعمق والتعاطي الفكري والثقافي والمحبة المنقطعة النظير، ليس صداقات عادية، صداقات مركزة ومعمّقة، وما ذكرته من الأسماء هناك أضعافها لاتزال في ذاكرتي.

المقدم: سنرجع دكتور إبراهيم بالذاكرة إلى 2003/4/27 لحظة وصولك إلى العراق بعد فترة انقطاع طويلة جداً، لحظات مازالت عالقة في ذاكرة الدكتور إبراهيم الجعفري رأيت عراقاً بلا صدام؟

الجعفري: من دون شك أن يكون العراق بدون صدام فذلك يعني سعادة كبيرة وكبيرة جداً بأن أجد عراق الحضارة، عراق القيم، عراق المبادئ، عراق التاريخ، عراق الثروات قد رُفِع عنه الكابوس، لكن هذه الفرحة من دون شك تنغّصت عندما وجدت آثار الحرب ماثلة أمام عيني، وما يترتب على الحرب من خلال شاخص أفق المستقبل هذا آلمني كثيراً؛ لذلك كنت مع التغيير، وكرّست حياتي من أجله، لكني كنت معارضاً للحرب؛ لأن الحرب شر وخراب، ولا توجد حرب جيدة وحرب سيئة فكل الحروب سيئة خصوصاً الحرب التي يعقبها احتلال.

المقدم: لكن هناك أطراف سياسية أيّدت الحرب على العراق؟

الجعفري: اجتمعت الأطراف العراقية في ذلك الوقت في لندن لكني في الوقت الذي كنت أمثل فيه حزب الدعوة رفضت المشاركة في مؤتمر لندن، وكذلك مؤتمر صلاح الدين، ومؤتمر الناصرية، ومؤتمر بغداد، وفي حوار مفتوح مع الأميركان، ولأول مرة كنت التقيتهم قبل الشروع في الحرب، وسألوا عن سبب عدم المشاركة، فقلنا لهم بصراحة: نحن أكثر من قدّم ضحايا على طريق التغيير، لكننا نعتقد أن الحرب ليست الطريقة الصحيحة للتغيير، فسألوا عن الآلية البديلة، فقلت لهم بصراحة: أغلقوا سفاراتكم في بغداد، وأغلقوا سفارات صدام في عواصمكم، وحوّلوا نظام صدام وزمرته إلى مجرمي حرب على غرار ما حصل مع مليوزوفيتش الرئيس اليوغسلافي، وحوّلوا الثروة العراقية إلى صاحبها الشرعي وهو الشعب العراقي سينتهي صدام وزمرته.

المقدم: ما أبرز المعوقات التي واجهتك في فترة توليك رئاسة مجلس الحكم العراقي خصوصاً أن تلك المرحلة تعتبر من المراحل الصعبة جداً في تاريخ العراق الحديث؟

الجعفري: وضعت ثلاثة أهداف أمام عيني، وهي: الشروع في كتابة الدستور، وأن أزور الدول العربية وأعبّر عن علاقتنا بها، وبالفعل زرت سبع دول في سبعة أيام، بدأت بالإمارات وثنيت بدول الخليج الكويت والسعودية ومصر إلى أن انتهيت بالأردن، والهدف الثالث هو الخروج بحكومة منتخبة، وفعلاً تـُوجِّت بتشكيل الحكومة الأولى في عام 2003.

المقدم: كيف كانت عملية إدارة بلد مثل العراق حين كنتَ أول رئيس مجلس حكم، وأول رئيس لحكومة منتخبة؟

الجعفري: وجدت نفسي أمام مسؤولية كبيرة وثقيلة، لكن لم يكن في الأمر خيار، ولابد أن أنهض بهذه المسؤولية، وتصديت لها، وقد سألني هذا السؤال نفسه رئيس وزراء بريطانيا الأسبق (توني بلير) عندما قال لي بصريح العبارة: (تم اختياري عام 1997 رئيساً لوزراء بريطانيا، وكل الإمكانات، ونحن بريطانيا العظمى، ومرت عليّ وأنا حائر بك، كيف تدير هذا البلد وهو مخرّب ومدمّر).. طبعاً هذا سؤال مشروع..
ينبغي أن نتصدى، قد لا نكون مسؤولين عن سبب هذه المآسي، لكننا مسؤولون عن مواجهتها.

المقدم: حدثان مهمان مرّا على تاريخ العراق بعد سقوط الدكتاتورية، حدثت فاجعة جسر الأئمة، وتفجير مرقد العسكريين، على الصعيد الشخصي كيف تعاملت مع هذين الحدثين؟

الجعفري: حين وصلني خبر أن مجموعة من الشهداء سقطوا في نهر دجلة، من جسر الأئمة الذي يربط الأعظمية بالكاظمية، كنت أفكر بطريقة أواجه بها هذه المشكلة، وأمنع تداعياتها، فبحثت عن اسم سُني راح ضحية الحادث، فجاءني الخبر بأن أحدهم اسمه (عثمان علي العبيدي)، فوجدت في اسمه بريقاً للآخر، تناولت الاسم بشكل مكثف بالخطابات، وأبرقت رسالة إلى الأوساط الشيعية المحتقنة من هذا العمل خصوصاً أن جسر الأئمة من السهل أن نتصور أنه يربط بين ضفتي دجلة، لكن الأمر ليس كذلك، بل يربط بين ضفتين اجتماعيتين وبين ضفتين مذهبيتين، فمن الممكن أن يكون صدّ وردّ معاكس - لا سمح الله - والمشاعر ملتهبة، ومن يرد أن يشعل الفتنة بين أبناء البلد الواحد والدين الواحد سينجح؛ فأسرعت في تناول اسم (عثمان العبيدي) خصوصاً أنه اسم فيه بريق، وظروف استشهاده كانت

بسبب إنقاذه حوالى ستة من الغرقى الذين شاركوا في يوم استشهاد الإمام الكاظم (عليه السلام)، فهذا موقف مشرّف أظهرته للعلن، وفي الوقت نفسه جمعت خطباء الجمعة من السنة والشيعة والإعلاميين من السنة والشيعة، وبدأت بتغذية المشتركات بين السنة والشيعة بمفردات خطاب جامع، وجمعت وسائل الإعلام سواء كانت فضائيات عراقية أو عربية مهتمة بالشأن العراقي، وكانت ردود الفعل طيبة.

المقدم: لك كتاب اسمه (الوحدة الإسلامية في القرآن الكريم)، فصّلت فيه خمسة مهددات للوحدة الإسلامية، مثل: الإقصاء، والتسيّد الطائفي، والانكفاء الذاتي، والماضوية، والتسييس الطائفي، والنعرة الطائفية، كم نقطة استطاع العراق حتى اليوم أن يتجاوزها؟

الجعفري: هناك عوامل داخلية، وعوامل إقليمية، وعوامل دولية ساهمت سوية في تحويل هذا التعايش المذهبي إلى تحارب طائفي بدعوى أن المسألة تقاسمها الشيعة والكرد، فمحاولة تأليب وتثقيف الخطر في الموضوع تلقته بعض الشخصيات، وأصبحت تكرره في خطاباتها، وهذه كارثة، لكنها اختنقت بالفضاء الاجتماعي، وذلك لا يعني أن سلسلة الجهود التي بُذِلت سواء كان في أنظمة الانتخابات أو الأموال التي جاءت من الخارج، وتُدفع لتكريس النعرة الطائفية ليس معنى ذلك أنه صفر، لا.. كانت، ومازالت تشكل تحدّياً لكن صمام الأمان لايزال موجوداً وهو الشعب العراقي.